الفصل الخامس

رواية الشعر الجاهلي وتدوينه

١

رواية العرب للشعر الجاهلي

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نمو الخط النبطي وتطوروا به إلى خطهم العربي منذ أوائل الجاهلية أو لعلهم وصلوا إلى ذلك قبل فجرها، فقد وُجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقِّش الأكبر[١].

الـدَّارُ قَفْـرٌ والرسـومُ كمـا ... رقَّشَ في ظهـرِ الأَديـمِ قَلَـم

ويُقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرّحال قصيدة له حين وقع أسيرًا في يد بعض العرب[٢]، ويقول سلامة بن جندل[٣]:

لمن طَلَلٌ مثـل الكتـاب المنمَّـقِ ... خلا عَهْدُهُ بيـن الصُّلَيْب فمُطْـرِقِ

ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة، ويقول لبيد في مطلع معلقته:

عَفَتِ الديـارُ محلُّهـا فمُقَامُهـا ... بِمِنًى تأَبَّـدَ غَوْلُـها فرِجامُهـا[٤].

فمدافـعُ الرَّيَّـان عُـرِّى رسمهـا ... خلقًا كما ضمن الوحي سلامها[٥].

---

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص٢٣٧، رقش: زين ونمق.

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٦/ ١٣٠.

(٣) الأصمعيات (طبعة ار المعارف) ص١٤٦ والصليب ومطرق: موضعان.

(٤) عفت: درست وامحت، تأبد: توحش، والمحل: حيث يحل القوم. والمقام: المجلس، ومنى: موضع بحمي ضربة، والغول والرجام: جبلان أو موضعان.

(٥) مدافع اليان: موضع، والرسم: آثار الديار، وخلقًا: دروسًا، والوحي: جمع وحي وهو الكتابة، والسلام: الحجارة الرقيقة.

وجلا السيولُ عـن الطلـول كأَنهـا زُبُرٌ تُجِـدُّ متونَهـا أَقلامُهـا[1].

فهو يشبه رسوم الديار بالوحي أو الكتابة في الحجارة الرقيقة، ويقول إن السيول جلت التراب عن الطلول، حتى لكأنما آثار الديار كتبٌ طمست فأعيد بعضها على بعض وترك ما تبيَّن منها، فهي مختلفة. ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي[2]:

لإبنه حِطَّان بـن عَـوْفٍ منـازلٌ كما رقَّش العنوانَ فـي الـرَّقِّ كاتـبُ

ويقول الحارث بن حلزة اليشكري البكري[3]:

لمـن الديـار عَفَـوْن بالحُبْـس آثاتُهـا كمهـارق الفُـرْسِ

ويدور هذا التشبيه كثيرًا في أشعارهم، مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة، بل إن فريقًا منهم، كما يقول الرواة، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادي وعدى بن زيد العبادي[4]. ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة في الحواضر وخاصة في مكة التاجرة. وفي السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين في بدر أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة[5]، وكان من يكتبون بين يديه الوحي وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين في عقودهم ومعاملاتهم كثيرين[6]. فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة في الجاهلية، ورُوِيت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغًا شرعيًا لقومه في بعض ما حزبه من الأمر[7]. وغلا كرنكو فزعم أن نظم الشعر في الجاهلية كان مرتبطًا بها وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظة الواحدة، وأيضًا فإن استخدام الشاعر لبعض القوافي النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ

---

(١) الزبر: جمع زبور وهو الكتاب، وتجد: تجدد.

(٢) المفضليات ٢٠٤ والرق: الجلد الرقيق.

(٣) المفضليات ص١٣٢ والحبس بتثليث الحاء: موضع، وآياتها: علاماتها، والمهارق: الصحف.

(٤) أغاني ٢/ ١٠١ وطبعة الساسي ٢٠/ ٢٤ والشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ١/ ١٨٠.

(٥) طبقات ابن سعد ٢/ ١: ١٤.

(٦) الوزراء والكتاب للجهشياري (طبعة الحلبي) ص١٢.

(٧) أنظر الباب الثاني. في كتاب مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد (طبع دار المعارف).

الأذن[1]. وأكبر الظن أن اختلاف القراءة إنما نشأ في عصر التدوين أو بعبارة أخرى في القرن الثاني للهجرة، وأيضًا فإن الشعر فن سمعي، وليس فنًّا بصريًّا.

والحق أنه ليس بين أيدينا أي دليل مادي على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم، إنما حدث ذلك في الإسلام، بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آية وتحوُّل جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون. ولا نكاد نمضي طويلاً في العصر الإسلامي حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة، وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون. وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار في الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة، وخاصة في البيئات الآخذة بشيء من الحضارة، ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتخذت أداة لحفظ الشعر الجاهلي ودواوينه، ولو أنهم كان لهم كِتاب جمعوا فيه أطرافًا من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب، فلا كتاب لهم من قبله لا في الدين ولا في غير الدين.

أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة فمن باب الأساطير، وهو في حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات، فقد جاء في العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن "عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير.. والمذهبات السبع، وقد يقال لها المعلقات"[2] ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقات ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد، ومعناها: المقلَّدات والمسمطات، وكانوا يسمون فعلاً

---

(١) أنظر مقالة بعنوان The Use of Writing for the Preservation of Ancient Arabic poetry نشرت مع مقالات أخرى في كتاب: A Volume of Oriental Studies to E .G .Browne، Edited by W .J .Arnold..

(٢) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/ ١١٩.

قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما[1]، وقد نفي ابن النحاس الأسطورة فقال: "لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة [2]".

ونستطيع أن ندخل في هذا الباب باب الأساطير ما يُرْوَى عن حماد الراوية من أن النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ للميلاد "أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج- الكراريس- ثم دفنها في قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عبيد (حوالي سنة ٦٧هـ) يل له: إن تحت القصر كنزًا، فاحتفره، فأخرج تلك الأشعار، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة[3]" ويقول ابن سلام: "وقد كان عند النعمان بن المنذر منه (من شعر العرب في الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته، به، فصار ذلك إلى بني مروان، أو صار منه[4]". ويكفي أن يكون أصل الخبر حمادًا لامتهم في روايته لنشك فيه، بل إنه يحمل في أطوائه ما يجعلنا نتهمه، فهو ينتهي عنده إلى تعليله به كيف أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة، وكأنما ساقه حماد الكوفي لبيان سابقة الكوفة على البصرة في الشعر القديم والعلم به، والمنافسة بين البلدتين في هذا الباب معروفة.

وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يُجْمَعْ في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول، وبعد مشاورة بين أبي بكر رضوان الله عليه والصحابة، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم في الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه في كتاب، إنما نشأ ذلك في الإسلام وبمرور الزمن. أما في الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته، ويتلقاها عند الناس ويروونها.

ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية، وقد ظلت أزمانًا متتالية في الإسلام، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوي ظل في أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة. وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلى تدوينه تدوينًا عامًّا إلا بعد مرور نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٩.

(٢) أنظر معجم الأدباء لياقوت في ترجمة حماد ١٠/ ٢٦٦.

(٣) راجع الخصائص لابن جني (طبعة دار الكتب) ١/ ٣٩٢ ومعجم البلدان لياقوت في القصر الأبيض.

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص٢٣.

تبعوا ذلك في الشعر الجاهلي، ولم يكن ركنًا في الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتهم الدينية الملحة. ومن يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائمًا الرواية وأنها وسيلة انتشاره في القبائل، فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة، يقول المسيَّب بن عَلس[1]:

فلأَهدينَّ مع الرياح قصيدةً ... مني مُغَلْغَلةً إلى القَعْقاعِ[2].

تَرِدُ المياه فما تزال غريبةً ... في القوم بين تمثُّل وسماعِ

فقصيدته تنتشر في القبائل، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها، ويقول عَميرة بن جُعَل نادمًا على هجائه لقومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعد له حيلة في رده[3]:

نَدِمْتُ على شَتْم العشيرة بعدها ... مضتْ واستتبَّتْ للرواة مذاهِبُهْ

فأَصبحتُ لا أَسْطيع دَفْعًا لما مضى ... كما لا يرُدُّ الدَّرَّ في الضَّرْع حالبُهْ

فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيعة لنشره وذيوعه، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافًا هي طبقة الشعراء أنفسهم، فقد كان مَنْ يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعرًا يروي عنه شعره، وما يزال يروي له ولغيره حتى ينفتق لسانه، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن. ونص صاحب الأغاني على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمي، فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهير بن أبي سلمى المزني، وكان له روايتان كعب ابنه والحطيئة، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هُدْبة بن خَشْرم العُذْري، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة، وعن جميل أخذ كثيِّر صاحب عزَّة[4].

نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل في طبقات أو حلقات وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها، ومن أهم ملا يلاحظ في هذه المدرسة أن شعراءها أو رواتها كانوا

---

(١) المفضليات ص٦٢.

(٢) مع الرياح: يريد أنها تذهب كل مذهب، مغلغلة: نافذة تنفذ في الناس ونسلك إليهم السبل البعيدة.

(٣) الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٢ وقارن مع المفضليات ص١٠٠.

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨/ ٩١.

من قبائل مختلفة في شرقي الجزيرة وغربيها. ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروي خلفهُم شعر سَلفهم، ونصَّ القدماء على ذلك في غير شاعر، فقالوا إن الأعشى كان راوية لخاله المسيَّب بن علس وكان يأخذ منه[1] وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة ابن جُؤْية الهذلي[2]، ومَنْ يقرأ ديوان الهزليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم. وعلى هذا القياس توجد وشائج واضحة بين شعراء قيس بن ثعلبة، فطرفة يروي للمرقش الصغر عمه ويأخذ عنه، ويروي هذا عن عمه المرقش الأكبر ويحتذي على شعره، وأيضًا فإن طرفة كان يروي عن خاله المتلمِّس الذي رُبِّي في أخواله من بني يشكر. وقد لا تكون القبيلة الجامعةَ الواصلة، فقد يجمع بين الشعراء سلوك في الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروي بعضهم لبعض، ويأخذ بعضهم عن بعض، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرًّا والشنفري أو عند أبي دؤاد الإيادي وزيد الخيل.

ولو أن الرواة لم يرووا لنا هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين لحدسناها حدسًا من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة مهما شرَّقنا وغربنا في الجزيرة، وهي تقاليد جاءت من تمسكهم بنماذج أسلافهم لا يحيدون عنها ولا ينحرفون، فهي دائمًا الإمام المتبع، وهم كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أستاذه وشعراء قبيلته، بل أيضًا شعراء القبائل الأخرى. ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر، فقد كان يشركهم في ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم كما يسجل مثالب أعائدهم، وإلى ذلك أشار بعض بني بكر معيِّرًا تغلب لكثرة ترددها لقصيدة واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم، وكأن ليس لها شعر سواها، يقول[3]:

أَلْهَى بنى تَغْلِبٍ عن كـــل مكرمـــةٍ ... قصيدةٌ قالها عمـرو بـــن كلثـــومِ

يروونها أَبدًا مـذ كـــان أولهـــم ... يا للرِّجال لشعرٍ غيـــر مشئـــومِ

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ١٢٧ والموشح للمرزباني ص٥١.

(٢) الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٥.

(٣) أغاني ١١/ ٥٤.

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يعيشون شعر شعرائها، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم في إشاعته، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه في محافلهم ومجالسهم وأسواقهم، إذ لم يكن لهم شاغل سواه، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم، ومن ثَمَّ قال عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"(١) فهو كل علمهم وكل حياتهم.

وجاء الإسلام فانكبوا على تلاوة القرآن الكريم، ولكن لم ينسوا شعرهم أبدًا، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان ابن ثابت وغيره من الشعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها، وكان كثيرًا ما يستنشد الصحابة الشعر، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبي الصلت، قال الشريد بن سُوَيد الثقفي: "استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: هية، هيه، حتى أنشدته مائة قافية"(٢). وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلي، وكان يتمثل به أحيانًا في خطابته كخطبته المشهورة في يوم السَّقيفة، وكذلك كان عمر، وقلما كان يترك وافدًا عليه من قبيلة دون أن يسأله عن بعض شعرائها، وفيه يقول ابن سلام: "كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر"(٣).

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعًا، فقد كانوا كثيرًا ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم، قال جابر بن سمرة: "جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٤).

ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام، وقد أخذت تظهر عوامل تشد من أزرها وتقوي من شأنها، فقد أخذت تنشأ منذ تدوين عمر للدواوين حاجة

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص٢٢.

(٢) ابن سعد ٥/ ٣٧٦ وخزانة الأدب ١/ ٢٢٧ والمزهر ٢/ ٣٠٩.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٤١.

(٤) طبقات ابن سعد ١/ ٢: ٩٥ وما بعدها.

شديدة لمعرفة الأنساب، إذ كانت تلعب دورًا مهمًّا في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خططوها مثل البصرة والكوفة. وكان بين العرب قديمًا من يشتهرون بمعرفة الأنساب، ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح لهؤلاء النسابين شأن خطير، إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم، وكثيرًا ما كانوا يسوقون لهم قطعًا من الشعر تحدد نسبهم، ومن اشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنَّخار بن أوس العذري[1].

ونحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين على ومعاوية حتى تشتعل العصبيات القبلية اشتعالاً لم تخب نيرانه حتى نهاية العصر الأموي، وكان الشعر الوقودَ الجزل لهذه العصبيات، فأخذت كل قبيلة تعني برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها، ويتناقله أبناؤها، فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم. ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه[2].

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة، فعملت على حفظ هذا التراث، بما كانت تروي منه، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء، وكانوا كثيرًا ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها، وقد ينشدون بيتًا ويسألون عن صاحبه وقصيدته، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم[3]، وكان أبناؤهم على غرارهم "وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريدًا إلى العراق"[4] يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه. وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يرويهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة، وفي البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماءهم.

ومما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يُرْوَى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين، مما جعله يستدعي عبيد بن شَرِيَّة الجرهمي من صنعاء اليمن، ويتخذه سميرًا له

---

(١) أنظر في هؤلاء النسابين وفيما نسوقه هنا من اتصال رواية الشعر الجاهلي حتى القرن الثاني الباب الثالث من كتاب مصادر الشعر الجاهلي.

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص٢٣١ وما بعدها.

(٣) أنظر الأغاني ٣/ ٩١.

(٤) التصحيف والتحريف العسكري ص٤.

يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة، وهاله ما عنده من العلم بذلك، فاتخذ غلمانًا يقيدون في دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها في الجاهلية وأشعارها[1].

ومنذ وقت مبكر في صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعظة في المسجد الجامع، وكانوا كثيرًا ما ينثرون الأشعار الجاهلية التي تتصل بوعظهم في تضاعيف قصصهم، وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تعني بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعني بأخبار العرب الماضين وما كان يجري على ألسنة شعرائهم. وفي أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبًا للناشئة يروِّيها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكميت والطرماح[2]. ولم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يروي للجاهليين وينشد من شعرهم، وفي كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذه العلماء عن أمثال ذي الرمة والفرزدق وجرير ورؤبة من هذا الشعر[3]، وصور الفرزدق مدى روايته ومعرفته للشعر الجاهلي، فقال في بعض قصيده[4]:

وهب القصائدَ لي النوابــغُ إذ مضوا ... وأَبو يزيد وذو القروح وجَرْوَلُ[5].

والفحلُ علقمةُ الذي كانــتْ لــه ... حُلَلُ الملوك كلامُــه لا يُنْحَــلُ

وأَخو بني قيسٍ وهُــنَّ قَتَلْنَــه ... ومُهَلْهِــلُ الشعــراء ذاك الأَوَّلُ[6].

والأَعشيــان كلاهمــا ومُرَقِّــشٌ ... وأَخو قُضاعةَ قولــهُ يُتَمَثَّــلُ[7].

---

(١) أنظر مصادر الشعر الجاهلي ص١٥٩ والفهرست ص١٣٢.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٥١، ٢/ ٣٢٣.

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص٢٢٥ وما بعدها.

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص٢٠٠ والديوان (طبع القاهرة) ص٧٢٠.

(٥) النوابغ: النابغة الذبياني والجعدي والشيباني. وابو يزيد: المخبل، وذوالقروح: امرؤ القيس، وجرول: الحطيئة.

(٦) أخو بني قيس: طرفة، وهن قتلته: يريد القوافي، لأنه قتل بسبب بعض أهاجيه.

(٧) الأعشيان: أعشى بن قيس وأعشى باهلة. وأخو قضاعة: أبو الطمحان القيني.

وأَخو بني أَسَدٍ عَبِيــدٌ إذ مضــى ... وأَبــو دُوادٍ قولــه يتنخَّــلُ

وابنا أَبى سُلْمَى زهيرٌ وابنُــه ... وابن الفُرَيْعَة حين جَدَّ المِقْوَلُ[1].

والجعفريُّ وكان بِشْرٌ قبلــه ... لى من قصائـده الكتابُ المُجْمَـل[2].

ولقد ورثتُ لآل أَوسٍ منطقــًا ... كالسَّمِّ خالط جانبيــه الحَنْظَـلُ[3].

والحارثيُّ أخو الحِماس ورِثْتُــهُ ... صَدْاعًا كما صَدَعَ الصَّفَاةَ المِعْوَل[4].

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق عربي في العصر الإسلامي وما وليه من أوائل العصر العباسي إلا وهو يروي الشعر الجاهلي، إن هو تحدث أو وقف خطيبًا، وتمثل الحجاج بالشعر في خطابته ذائع مشهور. وإذا كنا لاحظنا في الجاهلية أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء، فإننا نلاحظ في العصر الإسلامي نشوء طائفة من الرواة، لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر، فهم لا يروونه لغرض تعلمه، وإنما يروونه لغرض نشره في الناس وإذاعته، وإليهم يشير جرير بقوله في وصف بعض قصائده[5]:

خروجٍ بأَفواه الــرواة كأَنهــا ... قَرَا هُنْدُوانــيٍّ إذا هُــزَّ صَمَّمــا[6].

وفي أخباره أنه كان له رواة يلزمونه ويأخذون عنه شعره، وكذلك كان الفرزدق. ولم يكونوا يروون شعرهما فحسب بل كانوا ينقحونه ويهذبونه، فعن شيخ من هذيل قال: "جئت الفرزدق... ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره.. ثم أتيت جريرًا.. وجئت رواته وهم يقوِّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد"[7]. وفي رأينا أن ظهور هذه الطبقة من الرواة إنما

---

(١) ابن القريعة: حسان بن ثابت.

(٢) الجعفري: لبيد، وبشر هو بشر بن أبي خازم.

(٣) أوس: أوس بن حجر.

(٤) الحارثي: النجاشي.

(٥) النقائض ص ٤٣٠.

(٦) قرا: متن، الهندواني: السيف.

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ٤/ ٢٥٦ وما بعدها.

نشأ من العناية الشديدة برواية القديم والحديث، وكأنما لم يعد للناس من شغل وراء هذه العناية، فمنهم من يتخصص برواية شعر المعاصرين ومنهم من يتخصص برواية الشعر الجاهلي كيونس بن متى راوية الأعشى[1].

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواة لا يحصيهم العدّ حملوا الشعر الجاهلي إلى عصور التدوين، فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة، وبذلك أسلموه للأجيال التالية، وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع على نحو ما سنعرض لذلك في غير هذا الموضع، ومن غير شك سقط منه كثير في أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمني الطويل، يقول ابن سلام: "لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير"[2].

(١) راجع في تحقيق اسم هذا الراوي مصادر الشعر الجاهلي ص٢٣٨ وما بعدها.

(٢) ابن سلام ص٢٢.

٢

رواة محترفون

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامي ومطلع العصر العباسي حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملاً أساسيًّا لهم، وتختلط في هذه الطبقة أسماء عرب وموال، وأسماء قرَّاء للقرآن الكريم وغير قراء، وهم جميعًا حضريون، عاشوا غالبًا في البصرة والكوفة. ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة، بل كانوا يضيفون إليها كثيرًا من الأخبار عن الجاهلية وأيامها، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات في المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفي اثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة، أو يفسرون لهمظروف النص التاريخية.

وأهمُّ هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحيانًا ليستقي الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة، وكان بين البدو أنفسهم مَنْ هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريدون. وقد أظهورا في عملهم مهارة منقطعة النظير، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها، وكان من أهم الأسباب في ذلك تفسير ألفاظ القرآن الكريم، فقد جرت عادة المفسرين منذ ابن عباس على الاستشهاد بالشعر الجاهلي في شرح ألفاظ الذكر الحكيم، وأيضًا فقد انبرت جماعات تحاول وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها، واعتمدت في ذلك اعتمادًا شديدًا على الشعر الجاهلي فهو مادة اللغة ومادة قواعدها وقوانينها التي ينبغي أن تتبع. على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر في ذاته ومن أجل نفسه، وقد حملته إليهم الموجة الحادة من روايته في أثناء العصر الإسلامي، ومن المهم أن نعرف أنهم قلما يذكرون من حملوا عنهم هذا الشعر، فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلاً[1].

---

(١) أنظر مصادر الشعر الجاهلي ص٢٥٥ وما بعدها.

ولا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى يكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين: مدرسة في الكوفة ومدرسة في البصرة، وعرف الأولون بأنهم لا يتشددون في روايتهم تشدد الأخيرين، ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير. ولعل من الطريف أن نعرف أن الكوفة عُرفت في الحديث النبوي بالوضع والانتحال أيضًا حتى كان مالك بن أنس يسميها دار الضَّرْب يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تُضْرَبُ الدراهم والدنانير وتصنع. ويقول أبو الطيب اللغوي: "والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بين في دواوينهم"(١). وندَّد بهم بالصريون كثيرًا، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد، فكان كل منهما يشكِّكُ في الآخر(٢)، ولكن إذا صفينا هذه التشكيكات والتنديدات أتضح لنا أن رواية البصرة في جملتها أوثقُ من رواية الكوفة. وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة في الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة، فبين الطرفين جميعًا متهمون، وموثَّقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحري.

وربما كان السبب الحقيقي في تقدم البصرة على الكوفة في الرواية أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أمينًا، بينما كان رأس رواة الكوفة حمادًا، وكان متهمًا كثير الوضع، لا يوثق بما يرويه. وكان أبو عمرو من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة، وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم، وُلد سنة ٧٠ للهجرة، وتوفي سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩: "وكان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفحصاء قد ملأت بيتًا له إلى قريب من الصقف.. ثم إنه تقرأ أي تنسك فأحرقها"(٣) وهو إحراق لا يغير من الأمر شيئًا فإن ما رواه حمله عنه تلاميذه البصريون، وكان إمامهم وقدوتهم. ويحكي عنه أنه قال: "ما زدت في شعر العرب إلا بيتًا واحدًا، يعني ما يُرْوَي للأعشى من قوله:

وأَنكرتْني وما كـان الــذي نكــرتْ من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصلَعا(٤).

---

(١) مراتب النحويين ص٧٤.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ٤٣٤ وما بعدها.

(٣) أنظر البيان والتبيين ١/ ٣٢١.

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣/ ١٤٣.

وحاول بعض الباحثين التشكيك في روايته لهذا الاعتراف[1]، وهو اعتراف يوثق بوايته ويزيدها قوة، وفي سيرته ما يدل دلالة قاطعة بأنه كان ثقة؛ فقد كان تقيًّا صالحًا، وكان أحد الأعلام الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم. أما حماد راس رواة الكوفة فكان من الموالي، وُلد سنة ٩٥ للهجرة، وتوفي سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ ويقال إنه: "كان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص، فنقبَ ليلة على رجل، فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد، فاستحلاه وتحفظه، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه، فبلغ في العلم ما بلغ"[2] وربما كان مما يصور هذا العلم ومداه ما يُرْوَى عن مروان بن أبي حفصة من قوله: "دخلت أنا وطُرَيْح ابن إسماعيل الثقفي والحسين بن مُطَير الأسدي في جماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد (١٢٥-١٢٦) ها هو في فُرش قد غاب فيها، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعرًا وقف الوليد بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال: هذا أخذه من موضع كذا وكذا، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان، حتى أتى على أكثر الشعراء، فقلت: من هذا؟ فقالوا حماد الراوية[3]" يروي عن الهيثم بن عدى أنه كان يقول: "ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد"[4]. وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون اسم الراوية علمًا عليه، ويروي أن الوليد بن يزيد سأله بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية؟ فقال: "بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به، ثم لا أُنْشَدُ شعرًا قديمًا ولا محدثًا إلا ميزت القديم منه من المحدث، فقال الوليد: إن هذا العلم وأبيك كثير، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال كثيرًا، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام، قال: سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد، فأنشد الوليد حتى

---

(١) أنظر مقالة مرجليوث The Origins of Arabic Poetry في صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية عدد يولية سنة ١٩٢٥ ص ٤٢٩ وتاريخ الأدب العربي لبلاشير ١/ ١١١.

(٢) الأغاني ٦/ ٨٧.

(٣) الأغاني ٦/ ٧١.

(٤) أنظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت ١٠/ ٢٦٥.

ضجر، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه، ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين، وأخبر الوليد بذلك، فأمر له بمئة ألف درهم"[1]. وقد يكون في هذا الخبر ضرب من المبالغة، غير أنه يصور مدى ما استقر في أذهان معاصريه عن معرفته وروايته للشعر الجاهلي.

ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقًا ماجنًا زنديقًا[2]، وكان شاعرًا يحسن صوغ الشعر وحوكه[3] فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به، وكثر منه ذلك حتى عُرف به واشتهر، يقول الأصمعي: جالسته فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف ولم أرْضَ روايته، ويقال إنه مدح بلال بن ابي بردة المتوفى بعد سنة ١٢٦ بقصيدة، وكان ذو الرمة حاضرًا، فقال له: إنها ليست لك، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية[4] ويقال إنه قدم عليه مرة، فقال له: ما أطرفتني شيئاً؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة بمديح أبي موسى الأشعري (جد بلال) فقال بلال: ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروي شعر الحطيئة! ولكن دعها تذهب في الناس[5] وقصته في مجلس أمير المؤمنين المهدي مع المفضل الضبي مشهورة، فقد زاد ثلاثة أبيات في مطلع قصيدة زهير: (دع ذا وعد القول في هرم) فأنكرها المفضل ولما سأله عنها المهدي بكل يمين محرجة اعترف بأنه أضافها من عنده، فأمر المهدي أن نيادي في الناس بإبطال روايته لكذبه وبصحة رواية المفضل مواطنه[6]. وحاول بعض الباحثين التشكيك في القصة[7]، لأن المهدي ولي سنة ١٥٨ بعد وفاة حماد، ولكن هناك من تأخروا بوفاته إلى سنة ١٦٤ كما قدمنا، وربما أخطأ الرواة في تعيين الزمان والمكان، إذ ذكروا أن القصة حدثت في قصر عيساباذ الذي بناه المهدي في

---

(١) الأغاني ٦/ ٧١ ومعجم الأدباء ١٠/ ٢٥٩.

(٢) الحيوان ٤/ ٤٤٧ والأغاني ٦/ ٧٤ وأمالي المرتضي ١/ ١٣١ ولسان الميزان ٢/ ٣٥٣، ٣/ ١٧٣.

(٣) المزهر ٢/ ٤٠٦ حيث يذكر أن الأصمعي روي شيئًا من شعره، وأنظر الأغاني ٥/ ٢٠٩ يروي له ابياتًا محكمة الصنعة.

(٤) الأغاني ٦/ ٨٨.

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠/ ٤٠ وحاول ناصر الدين الأسد أن يصحح نسبة القصيدة للحطيئة لرواية المدائني ورواة ديوان الحطيئة لها، ولكن ذلك لا يكفي لصحة نسبها.

(٦) الأغاني ٦/ ٨٩ وما بعدها.

(٧) أنظر مقدمة لايل المفضليات ص١٨ وما بعدها ومقالة برينلش في مجلة Z.L.O. وعدد ١٩٢٦ ص٨٢٩ وما بعدها ومصادر الشعر الجاهلي ص٤٤٢.

سنة ١٦٤ بينما أرخوا لها بنسبة ١٥٨. وحتى على فرض بطلان هذه القصة فإن هذا البطلان لا يدفع التهمة عن حماد، كما لا يدفعها ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين من أن اتهامه الواسع قد يرجع إلى المنافسة بين البصرة والكوفة، فسيرته كانت سيرة شخص سيئ السيرة خلقيًّا ودينيًّا، وما كان ابن سلام البصري ليقول فيه: "كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به: كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار"[١]. بعامل المنافسة والعصبية، ونفس البصريين الذين اتهموه وثقوا رواية مواطنه ومعاصره المفضل الضبي. فليست المسألة مسألة منافسة بين بلدين، وإنما هي حقيقة واقعة، ونفس الرواة الإثبات من بلدته كانوا يشركون البصريين في نفس التهمة، فابن الأعرابي الكوفي يروي عن المفضل أنه قال: "قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده، فلا يصلح أبدًا، فقيل له وكيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، لا، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك؟"[٢].

فالتهمة لم تكن بصرية خالصة، بل كانت بصرية كوفية، وربما بالغ بعض البصريين فقال عنه إنه كان يلحن ويكسر الشعر ويصحِّف ويكذب[٣]، ولكن بعد تجريد التهمة من مبالغاتها تظل عالقة به. ولذلك ينبغي أن لا نقبل شيئًا مما يروي دون أن يأتينا عن الرواة الثقافت، وكذلك ينبغي أن نتشكك فيما يرويه تلاميذه مثل ابن كناسبة المتوفى سنة ٢٠٧ وخلف الحمر راوية البصرة المشهورة إذ كان قد أكثر الأخذ عنه[٤]، ويُرْوَى أنه كان يعطي حمادًا المنحول فيقبله منه ويرويه[٥].

---

(١) ابن سلام ص٤٠.

(٢) الأغاني ٦/ ٨٩ ومعجم الأدباء ١٠/ ٢٦٥.

(٣) الأغاني ٦/ ٨٩ وأنظر ٨/ ٢٨٣.

(٤) مراتب النحويين ٤٧، ٧٢.

(٥) الأغاني ٦/ ٩٢.

ومن رواة الكوفة الذين عاصروا حمادًا واشتهروا بالوضع برزخ العروضي وكان من أكذب الناس في الرواية[1]. ومثله جناد وكان يخلط في الأشعار ويصحف ويلحن[2]. وإذا كانت الكوفة أصيبت بمثل هؤلاء الرواة الوضاعين الذين ينحدرون من أصول غير عربية فقد كان من ورائهم رواة ثقات على رأسهم المفضل بن محمد بن يَعْلى الضبي المتوفى حوالي سنة ١٧٠ للهجرة وكان عالمًا عليمًا دقيقًا بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها وأنساب العرب وأصولها، ويُجمع الرواة كوفيين وبصريين على توثيقه، وقد خلف مجموعة كبيرة من أشعار الجاهليين هي الملقبة بلقب المفضليات، وهي أروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلي ووثائقه التي لا يرقى إليها الشك.

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة في الحقبة التي تلت أبا عمرو بن العلاء وجدنا بها خلفًا الأحمر الذي تُسَدَّد إليه سهام الاتهام، ولم يكن يقل عن حماد في معرفته بأشعار العرب وأخبارها، بل لعله يتقدمه، إذ كان شاعرًا مبرِّزًا، وكان بصيرًا بالشعر، وأصل أبويه من فرغانة فهو من الموالي، ولد سنة ١١٥ للهجرة وتوفي حوالي سنة ١٨٠ وفيه يقول ابن سلام: "اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لسانًا، وكنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبرًا أو أنشدنا شعرًا ألاّ نسمعه من صاحبه"[3] غير أن شهادة ابن سلام له لا تعفيه من التهمة الشديدة التي سلطت على روايته، وقد شهد هو نفسه بها إذ زعم كما قدمنا أنه كان يعطي حمادًا المنحول من الشعر ويزيفه عليه فيرويه، ويقال إنه هو الذي وضع اللامية المنسوبة إلى الشَّنفري[4]:

أَقيموا بني أُمِّي صُدورَ مَطِيِّكُمْ فإِني إلى قومٍ سواكُم لأَمْيَلُ

كما وضع اللامية الأخرى المنسوبة إلى تأبط شرًّا إو إلى ابن أخته[5]:

إِنَّ بِالشِّعْبِ الذي دون سَلْمٍ لقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

---

(١) إنباه الرواة ١/ ٢٤٢ والفهرست (طبعة مصر) ص١٠٧.

(٢) أنظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وراجع الفهرست ص١٣٥.

(٣) ابن سلام ص٢١.

(٤) الأمالي ١/ ١٥٦.

(٥) أنظر العقد الفريد ٦/ ١٥٧ والحيوان ١/ ١٨٢ وأنظر مصادر الشعر الجاهلي ص٤٥٨ وما بعدها.

وتصدَّى له الأصمعي مرارًا يتهمه بالوضع والنحل، فقال إنه "وضع على شعراء عبد القيس شعرًا موضوعًا كثيرًا، وعلى غيرهم، عبثًا بهم، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة"[1] وعرض مرة لرواة الكوفة يصفهم بأنهم يَقْبلون كل ما يرد عليهم، فقال: "رواة غير منقِّحين، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دُؤاد الإيادي قالها خلف الأحمر، وهم قوم تعجبهم كثيرة الرواية، إليها يرجعون وبها يفتخرون"[2]. ويظهر أن البصريين كانوا يتحامون روايته، بينما كان يحملها الكوفيون رواة حماد وأضرابه، ويقول المبرد فيه موضحًا ذلك: "لم يرد أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه، وكان به يُضْرَب المثل في عمل الشعر، وكان يعمل على ألسنة الناس، فيشبّه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه، ثم نسك فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك ما لا عظيمًا خطيرًا على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه، فأبى ذلك وقال: قد مضى لي في هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه. وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه، وبلغ مبلغًا لم يقاربه حماد. فلما تقرَّأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس، فقالوا له: أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة، فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم"[3].

وواضح من ذلك أن الكوفة هي التي حملت رواية خلف بالإضافة إلى رواية حماد، أما البصرة فقد حمل فيها بعض الرواة روايته، ولكن الكثرة وعلى رأسها الأصمعي رفضتها. والأصمعي يقوم في البصرة مقام المفضل الضبي في الكوفة، وقد أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية وأشعارها وأخبارها، ووثقوه وعدلوه، وإن كان ذلك لم يمنع بعض منافسيه من النيل منه، ولكنه نيل مردود، فقد كان في الذروة من الثقة والأمانة، وهو عربي صليبة، ولد حوالي سنة ١٢٢ للهجرة وتوفي سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢١٦، أو ٢١٧، وفيه يقول ابن جِنِّي: "وهذا الأصمعي هو صَنَّاجة الرواة والنقلة، وإليه محط الأعباء والثقلة... كانت مشيخة القراء وأمثالهم تحضره وهو حَدث لأخذ قراءة نافع عنه، ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته، لأنه لم يقو عنده إذ لم يسمعه، وإما

---

(١) مراتب النحويين ص٤٧.

(٢) الموشح للمرزباني ص٢٥١ وما بعدها.

(٣) مراتب النحويين ص٤٧.

إسفافُ مَنْ لا علم له وقول من لا مُسْكة به إن الأصمعي كان يزيد في كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا فكلام معفوٌّ عليه غير معبوء به"[1] ويقول أبو الطيب اللغوي: "فأما ما ما يحكيه العوام وسُقَّاط الناس من نوادر الأعراب ويقولون: هذا مما افتعله الأصمعي.. وأني يكون الأصمعي كما زعموا وهو لا يفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما ينفردون به عنه، ولا يجوِّز إلا أفصح اللغات ويلجُّ في دفع ما سواه[2]". وله مجموعة مشهورة من الشعر القديم هي الأصمعيات وهي كالمفضليات ثقة ودقة، ورُوِيت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة: دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة الفحل.

وكان يعاصره عالمان كبيران هما أبو زيد وأبو عبيدة، وكان أبو زيد يُعْنَي بجمع اللهجات واللغات الشاذة وتوفي وقد قارب المائة، سنة ٢١٤ أو ٢١٥، وهو عربي أنصاري خزرجي، أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فولد حوالي سنة ١١٠ وتوفي حوالي سنة ٢١١ وهو من الموالي وكانت فيه نزعة شعوبية صارخة، ولكن الرواة ويقوه[3] وينبغي أن لا نتبعهم في توثيقه وأن نقدم عليه الأصمعي وأبا زيد، وكان يهتم بالأنساب والأيام، وشرح نقائض جرير والفرزدق شرحه المشهور.

وكان بجانب هؤلاء الذين تحدثنا عنهم رواة يختلفون ثقة وتجريحًا مثل الهيثم ابن عدى المتوفى سنة ٢٠٦ وكان يهتم بالأخبار التاريخية وتشوب التهمة روايته، وأكثر منه تهمة في هذا الباب محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ لهجرة وابنه هشام المتوفى سنة ٢٠٤ وهما من كبار الوضاعين ويروي عن هشام أنه كان يقول: "كنت استخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة (المناذرة) ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة"[4]. وينتظم في سلك هؤلاء المؤرخين الواقدي والمدائني.

---

(١) الخصائص ٣/ ٣١١.

(٢) مراتب النحويين ص٤٩.

(٣) إنباه الرواة ٣/ ٢٨٠.

(٤) تاريخ الطبري (طبعة ليدن) القسم الأول ص٧٧٠.

وخلف بعد مَنْ قدمنا تلاميذهم من رواة القرن الثالث، وعلى رأسهم أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٣١ وابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١هـ الكوفيان وكان وراءهما كثير من الرواة في بلدتهم مثل محمد بن حبيب وابن السكيت المتوفى حوالي سنة ٢٤٤ وثعلب المتوفى سنة ٢٩١. وانتهت الرواية في البصرة إلى أبي سعيد الحسن ابن الحسين السكري المتوفى سنة ٢٧٥ وإليه يرجع الفضل في جمع كثير من الدواوين الجاهلية، وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية.

ويتضح من كل ما أسلفنا أن رواية الشعر الجاهلي أُحيطت بكثير من التحقيق والتمحيص، وأنه إن كان هناك رواة متهمون، فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الوفي والأصمعي البصري، وما مَثل الشعر الجاهلي في ذلك إلا مثل الحديث النبوي، فقد دخله هو الآخر وضع كثير، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه، وقدَّموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة، وكذلك الشأن في الشعر فقد دخله فساد كثير، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا- في مهارة بالغة- أن يميزوا صحيحه من زائفه، غير تاركين منفذًا إلى ذلك سواء في سَند الرواة أو في المتن نفسه، بل إن ابن سلام ليقدّمهم على علماء الحديث في هذا الباب، يقول: "حدثني يحي بن سعيد القطّان قال: رواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع"[1].

فينبغي أن لا نتخذ من كثرة الاتهامات في بيئة الرواية اللغوية مزلقًا إلى الطعن في الشعر الجاهلي عامة، إنما نطعن على ما طعن الرواة الثقات فيه حقًّا، ونضيف إليه ما يهدينا بحثنا الحديث إلى تزييفه. أما بعد ذلك فتبقى عامة ما رواه أثباتهم كالمفضل والأصمعي صحيحة. وكانا يتحريان تحريًا شديدًا.

فلنهمل إذن من الشعر الجاهلي ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلف الأحمر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتزيدين أمثال عُبيد بن شَريَّة ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وما وضعه القصاص عن العرب البائدة، وأيضًا ينبغي أن نهمل ما اختلف فيه الرواة، أما ما اتفقوا عليه أو جاءنا عن أثباتهم فينبغي أن نقبله. وكانوا يأخذون بهذا القياس، يقول ابن سلام: "وليس لأحد- إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه (من الشعر)- أن يقبل من

---

(١) ذيل الأمالي ص١٠٥.

صحيفة ولا يروي عن صحفي"[1]. ويقول: "قد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه"[2]. واحتفظ ابن سلام في طبقاته بمادة وفيرة من نقد البصرة للرواية والرواة، فهو تارة يُعد للشاعر القصائد الصحيحةَ النسبةِ إليه، وتارة يقف عند بيت أو أبيات بعينها تنسب لشاعر من الشعراء الجاهليين وينص على أنها منتحلة، فمن الضرب الأول قوله عن طرفة وعَبيد بن الأبرص: "ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلةُ ما بقى بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صحَّ لهما قصائد بقدر عشر.. ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر، وكانا من أقدم الفحول فلعل ذلك لذاك، فلما قلَّ كلامهما حَمْل عليهما حمل كثير"[3] ثم عاد فوسَّع الشك في شعر عبيد فقال فيه: "قديم الذكر عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب، لا أعرف له إلا قوله:

أَقْفَرَ من أَهله ملحوبُ فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنوبُ

ولا أدري ما بعد ذلك"[4]. ومن الضرب الثاني إنكاره أن يكون النابغة هو الذي قال:

فأَلفيتُ الأَمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

وقد عقب على إنكاره بأن أهل العلم أجمعوا على أن النابغة لم يقل هذا[5]، وعلى هذا النحو صفّي علماء الرواية واللغة الشعر الجاهلي من شوائب كثيرة علقت به، وإن كنا لا ننكر في الوقت نفسه أنهم تناولوا أشياء منه بالتنقيح، غير أن ذلك كان في حدود ضيقة، كأن يبدلوا كلمة مكان كلمة، أو يقيموا بعض الألفاظ على سنن لهجة قريش، فقد كانت تسقط على لسان الشعراء أحيانًا أشياء من لهجاتهم القبلية، فكانوا يصلحونها، وقد يصلحون عروض بعض القصائد، ولكنهم بصفة عامة حافظوا على جوهر هذا الشعر محافظة تشهد لهم بالدقة وأنهم استطاعوا أن ينقلوا غير قليل منه إلى أجيالهم والأجيال التالية في صورة تكاد تكون مطابقة تمام المطابقة لأصوله.

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص٦.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن سلام ص٢٣.

(٤) ابن سلام ص١١٦.

(٥) ابن سلام ص٤٩ وما بعدها.

٣

التدويـن

مرَّ بنا أن العرب لم يدوِّنوا شعرهم في الجاهلية، وأن ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم، إن صحَّ، فإنه لا يدل على أنهم فكروا فعلاً في تدوين أشعارهم، إنما هي قطع تكتب على رَحْل أو على حجر أو جلد لإنباء القبيلة أو بعض أفرادها بحادث. وقد نفينا أن يكونوا علقوا المعلقات في الكعبة وكذلك رفضنا رواية حماد عن تدوين النعمان بن المنذر لأشعار العرب وما مُدح به هو وأهل بيته. ومن الأدلة على ذلك أننا لا نجد راويًا ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة في الجاهلية، كما أننا لا نجد راويًا ثقة يزعم أن شاعرًا في الجاهلية ألقى قصيدته من صحيفة مدونة، إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشادًا، ومَنْ كان منهم يُعِدّ قصيدته في حَوْل أو أقل من حول كان يعدها في نفسه، ويرددها في ذاكرته، ثم ينشدها، ويَحْملها الناس عنه، ومن ثم قال الجاحظ: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام.. فما هو إلا أن يصرف (العربي) وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً (أفواجًا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيِّده على نفسه"[1].

وظل هذا شأن العرب في صدر الإسلام، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيِّدونه إلا قليلاً وفي ظروف خاصة، حتى مُصِّرت الأمصار، وراجعت العرب الشعار، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفي تقييد بعض الأخبار التاريخية، فدوّن زياد بن أبيه كتابًا في المثالب، ودوّن عروة ابن الزبير غزوات النبي عليه السلام وحروبه، ودوّن معاوية أخبار عبيد بن شريّة أو بعبارة أدق أمر غلمانه بتدوينها، وأخذ بعض الصحابة والتابعين يدوّن أحاديث الرسول عليه السلام. وقد يكون في تدوين الأحاديث ما ينير لنا الطريق في تدوين الشعر، فإن كثيرًا من الصحابة والتابعين كان ينكر تدوينها، ولم تدوّن تدوينًا عامًا إلا على رأس المائة، وكذلك نستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام القبائل بشعرها الجاهلي وشعرائها الذين يعدون مناط

---

(١) البيان والتبيين ٣/ ٢٨.

شرفها وفخارها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها فإنها لم تعمد إلى تدوين هذا الشعر إلا في حقبة متأخرة من عصر بني أمية.

ويظهر أنهم لم يكونوا يدوِّنون أشعار شعرائهم وحدها، بل كانوا يدونون معها أخبارهم، ولعل أقدم إشارة إلى هذه المدوَّنات ما أسلفنا من رواية أصحاب الأخبار عن حماد في أول تعلقه بالشعر من أنه نقبَ ليلة على رجل، فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل في طلبه، فقال في نفسه: "لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف، فنظرت في كتابي قريش وثقيف"[1]. ويُرْوى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وأنه طلب لذلك من حماد وجَنَّاد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان، ثم رد إليهما ما أخذه منهما"[2].

وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلاً على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثاني مدونات تاريخية للقبائل لعلها هي التي أعدَّت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التي نعرفها لديوان هذيل.

ونمضي بعد عصر الوليد بن يزيد فيلقانا أبو عمرو بن العلاء، وكان يعتمد على الرواية، ولكنه كان يقيِّد إلى جانبها كثيرًا من الشعار والأخبار حتى قالوا إن كتبه ملأت بيتًا له إلى قريب من السقف، ثم تقرَّأ (تنسك) فأحرقها كلها، يقول الجاحظ: "فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه، وكانت عامة أخبار عن أعراب قد أدركوا الجاهلية[3]". وكان حماد على ما يظهر يُعْنَى بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة، بل لعله لم يكن يعني بالكتابة، إنما كتب عنه تلاميذه، يقول صاحب الفهرست: "لم يُرَ لحماد كتاب، وإنما روي عنه الناس وصُنِّفت الكتب بعده"[4].

---

(١) الأغاني ٦/ ٩٤.

(٢) الفهرست ص١٣٤.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣٢١.

(٤) الفهرست (طبعة المطبعة الرحمانية) ص١٣٥.

وتُرْوَى للمفضل الضبي كتب صنَّفها، فيها أشعار وأخبار[1] ومن المؤكد أنه لم يكتب مفضلياته، وإنما أنشدها تلاميذه فحملوها عنه.

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن البواة الأولين لم يدوِّنوا ما رووه لطُلاَّبهم، ولم يكن هذا شأن رواة الشعر وحدهم، بل كان شأن رواة التاريخ الجاهلي ج-ميعهم مثل محمد بن السائب الكلبي فإن ابنه هشامًا هو الذي حمل مادة أخباره ودوَّنها في كتبه، ونفس الخليل بن أحمد لم يخلف كتابًا في النحو، بل أملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور. وكانوا يتأثرون في ذلك برواة الحديث، وربما كانت الحاجة عندهم أمسّ، لأن الشعر يحتاج إلى تلقين حتى لا يلحن فيه مَنْ ينشده، ولذلك كانوا ينبذون في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث من يلحن فيه بأنه صحفي يأخذ عن الصحف، ولا يأخذ شفاهًا عن مشيخة العلماء باللغة والشعر. ومن ثم ضعّفوا مَنْ يروي عن المدونات ولم يقبلوا روايته إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ، ولذلك ضعّف ابن سلام رواية من يتداولون الشعر القديم من كتاب إلى كتاب، يقول: "ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي".

والرواة التالون لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدوينًا منهجيًّا قائمًا على التوثيق والتجريح، وعلى رأسهم الأصمعي، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة. وكان هؤلاء الرواة المدوِّنون لا يكتفون بالسماع من جِلَّة الرواة السابقين، فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعي نفسه وعن أبي عمرو الشيباني الذي يقال إنه دخل البادية ومعه دَسْتيجتان من حبر، فما خرج حتى أفناهما بكتْب سماعه عن العرب[2].

وكان بعض الأعراب يفد على الحواضر وقد يقيم فيها ليسدَّ هذه الحاجة عند الرواة. والمهم أنهم لم يكتفوا بالاعتماد على ذاكرتهم صنيعَ الرواة من قبلهم، بل كانوا يدوِّنون ما يسمعونه ويحتفظون به ويقرءون منه في مجالسهم وينقله عنهم طلابهم. وأخذت موجة هذا التدوين تتسع

---

(١) إنباه الرواة (طبعة دار الكتب المصرية) ٣/ ٣٠٢،

(٢) نزهة الألباء للأنباري ص٦٣.

اتساعًا شديدًا، ويستطيع من يرجع إلى الفهرست وكتب التراجم أن يطلع على هذا النشاط التأليفي الذي لا يكاد يبلغه الحصر والعد، فقد ترك هشام بن محمد الكلبي نحو مائة وأربعين كتابًا، وكانت كتب المدائني لا تقل عنها عددًا، بينما خلف الهيثم بن عدى خمسين مصنفًا، وأكثر كتبهم يعد مفقودًا ومن بينها ما يشير إلى عناية بالشعر ككتاب أخبار خزاعة للمدائني وأخبار طيئ للهيثم، وقد نُشر الأصنام لابن الكلبي وهو يمتلئ بالشعر الجاهلي مما يدل على أنه كان يملأ كتبه به.

على أنه يلاحَظُ إزاء هؤلاء المؤرخين أن كثيرًا منهم لم يكن دقيقًا فيما يجمع من شعر، ولعل ابن إسحق صاحب السيرة النبوية أشهرهم في هذا الباب، وقد تصدَّى له ابن سلام في طبقاته، فقال: "وكان ممن أفسد الشعر وهجَّنه وحمل كل غُثاء منه محمد بن إسحق بن يسار، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر.. فقبل الناسُ عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لى بالشعر أوتيَ به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرًا. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارًا كثيرة، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف، أفلا يرجع إلى نفسه، فيقول: من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول: (فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا) أي لا بقية لهم، وقال أيضًا: (وأنه أهلك عادًا الأولى وثمودَ فما أبقى) وقال في عاد: (فهل ترى لهم من باقية) وقال: (وقرونًا بين ذلك كثيرًا) وقال: (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قومِ نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله)"[1].

وقال ابن سلام أيضًا في ابن إسحق: "فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم"[2]. وتعقب ابن هشام في سيرته ابن إسحق وردَّ كثيرًا ما رَوي، أو صحح نسبته.

---

(١) ابن سلام ص٨ وما بعدها.

(٢) ابن سلام ص١١.

وواضح أن هذه المنتحلات من الشعر المنسوب إلى عرب الجاهلية الأولى ليس لها أدنى قيمة، فقد ردها الرواة المحققون، ومع ذلك يتعلق بها بعض الباحثين المحدثين ليشككوا في الشعر الجاهلي عامة، مع أن القدماء رفضوها وردها، كما رفضوا وردوا رواية المتهمين من الرواة أمثال حماد وخلف. وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يُروى عن الجاهلين، بل نحن نضيقها تضييقًا شديدًا، فلا نقبل إلا ما أورده الثقاة مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي، فجملة ما رووه وثيقٌ.

ولا نبالغ إذا قلنا إن ما رواه هؤلاء الثقات لا يزال مادة غُفْلاً لم يدرس ولم يفحص، وقد خَلفٌ من بعدهم خلف أتموا تدوين الشعر الجاهلي وأشهرهم في الكوفة أبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي وقد اشتهر الأول بأنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة، وكان كلما عمل شعر قبيلة منها وأخرجه للناس كتب مصحفًا وجعله في مسجد الكوفة، وطبيعي أن يخرج دواوين القبائل راو كوفي لأن بيوتات العرب وأشرافها كانوا في الكوفة ولم يكونوا في البصرة، ومن غير شكٍ كانوا من أهم الأسباب التي أعانت على حفظ الشعر الجاهلي وروايته إلى أن دُوِّن في القرن الثاني. ويظهر أن الكتب الخاصة بالقبائل لم تكن تكتفي برواية الأشعار بل كانت تضم إليها غير قليل من أخبارهم وأيامهم، وربما كان هذا هو السبب في أننا نرى مؤرخيهم ينثرون في تاريخهم أشعارًا كثيرة كأنهم يرون أنها سنده وعماده، على نحو ما تصور ذلك كتب المدائني والواقدي وابن الكلبي. وكان رواة الشعر يمزجون بروايتهم كثيرًا من الأخبار التاريخية على نحو ما نرى في شرائح النقائض لأبي عبيدة. وقد بقي من دواوين القبائل ديوان هذيل برواية السكري المتوفى سنة ٢٧٥ وفيه تختلط الأشعار بالأخبار، ومن خير ما يصور ذلك فيه ديوان أبي ذؤيب.

ويدل كتال الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني أنهم دونوا من هذه الأشعار والأخبار تراثًا كبيرًا، ومعروف أنه يقع في واحد وعشرين مجلدًا ضخمًا وأن للجاهلين فيه حظًّا موفرًا. وهو يسوق هذه المادة الجاهلية الشعرية التاريخية مقترنة بإسناد، تصور مصدرها، محتاطًا إزاء رواته أشد الحيطة، فمن عرف بكذبه نبه عليه، وحتى من عرف بصدقه كان يراجع روايته على روايات معاصريه ودواوين الشعراء، مبالغة في الدقة والتحري. والكتاب مؤلف حقًا في القرن الرابع الهجري، ولكنه يستمد من رواة القرنين الثاني والثالث الهجريين كما يتضح من أسانيده، فهم الذين جمعوا

هذا التراث الجاهلي الضخم، وأتاحوا لمن جاءوا بعدهم أن يؤلفوا مؤلفاتهم الكبرى، سواء أكانت مجموعات شعرية أو أمالي أو أخبارًا وتراجم. بل لقد بدأ منذ القرن الثالث تأليف هذه الكتب الجامعة مثل حماسة أبي تمام والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتابه الشعر والشعراء.

وربما كان السكري أهم راو ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث، فقد رُوِيت عنه دواوين كثيرة، وهو يجمع في روايته بين الروايتين الكوفية والبصرية إذ أخذ عن ابن حبيب وابن السكيت الكوفيين كما أخذ عن الرياشي وأبي حاتم السجستاني البصريين. ونمضي في القرن الرابع الهجري، فيتكاثر التأليف والتدوين على نحو ما هو معروف عن ابن دريد وابن الأنباري والقالي والمرزباني، وعملهم كما ذكرنا مشتق من عمل رواة القرن الثالث، ونراهم يهتمون- مثل أبي الفرج الأصبهاني في أغانيه- بالسند، فهم لا يكتفون غالبًا بالراوي القريب الذي سمعوا منه، بل يسلسلون الرواة حتى نصل إلى أبي عمرو بن العلاء أو إلى المفضل الضبي مثلاً. وبذلك قدموا لنا- صنيع سابقيهم- مادة الشعر الجاهلي بكل ما تحمل من أسباب ضعف أوثقة، وكان كثير منهم لا يزال يرحل إلى البادية صنيع الرواة المتقدمين.

٤

قضيـة الانتحـال

واضح مما قدمنا أن الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال كثير، وقد أشار إلى ذلك القدماء مرارًا وتكرارًا، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الوُضَّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة، وبلغ من حرصهم في هذا الباب أن أهمل ثقاتهم كل ما روي عن المتهمين أمثال حماد وخلف، وكان الأصمعي خاصة لهم بالمرصاد، كما كان المفضل الضبي من قبله، وتتابع الرواة الأثبات بعدهما يحققون ويمحصون في التراث. ومن أهمهم في هذا الجانب ابن سلام، فقد دون في كتابه "طبقات فحول الشعراء" كثيرًا من ملاحظات أهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التي ينتسب إليها، وأضاف إلى ذلك كثيرًا من ملاحظاته الشخصية.

وهذا الكتاب في الحقيقة هو أول كتاب أثار في إسهاب مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي، وقد ردها إلى عاملين: عامل القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتتزيد في مناقبها، وعامل الرواة الوضاعين، يقول: "لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار"[1].

فالقبائل كانت تتزيد في أشعارها وتروي على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه، وقد أشار ابن سلام مرارًا إلى ما زادته قريش في أشعار الشعراء، فهي تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم، وقد أضافت كثيرًا إلى شعر حسان[2] "ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك، مثل داود بن متمم بن نويرة، فقد استنشده أبو عبيدة شعر أبيه متمم، ولاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها، وإذا كلامٌ دون كلام متمم، وإذا هو يحتذي على كلامه، فيذكر المواضع

---

(١) ابن سلام ص٣٩ وما بعدها.

(٢) ابن سلام ص١٧٩، ٢٠٤ وما بعدها.

التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفتعله"[1].

ولعل في هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبي عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه القبائل، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه، ويسوق لنا ابن سلام شكًا في قصيدة أبي طالب التي روتها قريش في أشعارها والتي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم[2]، ومعنى ذلك أنهم نظروا في شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا[3]. وهم يفحصون ويحققون في شعر المدينة كما فحصوا وحققوا في شعر قريش وغيرها من القبائل.

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلاً كثيرًا وتنسبانه إلى الجاهليين، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين، ومثل لها بحماد، ورأينا فيما مر بنا، أشباهًا له في جَنَّاد وخلف الأحمر. وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي، ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زَيْف، وهم رواة الأخبار والسير والقصص، من مثل ابن إسحق راوي السيرة النبوية إذ كانت تُصْنَع له الأشعار ويُدخلها في سيرته دون تحرز أو تحفظ، منطقًا بالشعر العرب من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس.

ورفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعًا، فلم يقبلوا شيئًا ما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة، وكذلك لم يقبلوا شيئًا مما يرويه ابن إسحق لا عن الأمم البائدة فحسب، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم، إلا أن يجدوه عند رواة أثبات، يقول ابن سلام وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قريش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراءَ المدينة: إن شعره في الجاهلية "سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل" ثم علق على ذلك بقوله: "ولسنا نعد ما يروي ابن إسحق له ولا لغيره شعرًا، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك

---

(١) نفس المصدر ص٤٠.

(٢) ابن سلام ص٢٠٤.

(٣) ابن سلام ص٢٠٥.

لهم[1]". فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحق وأشباهه من مثل عُبيد بن شَرِيّةَ وينحونه عن طريقهم، يقول ابن سلام: "وليس يُشْكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون[2]" مما حمله رواة القصص والأخبار من شعر غَثٍّ "لا خير فيه ولا حجة في عربيته ولا أدبٌ يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجِب ولا نسيب مستطرف[3]".

ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله، وفيه موثوق به وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة[4] ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم، من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء. وقد يغلب المنتحلُ الموثوقَ به، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق.

وقد لفتت هذه القضية، قضية انتحال الشعر الجاهلي أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب، وبدأ النظر فيها نولدكه[5] سنة ١٨٦٤ وتلاه آلورد حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين: امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة، منتهيًا إلى أن عددًا قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته، مع ملاحظة أن شكا لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظها كل منها. وتابع كثير من المستشرقين آلوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يروي للجاهليين، أمثال موير وباسيه وبروكلمان. وكان مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتبَ فيها مقالاً مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يولية سنة ١٩٢٥ جعل عنوانه كما مرّ بنا (أصول الشعر

---

(١) ابن سلام ص٢٠٦.

(٢) ابن سلام ص٤٠.

(٣) ابن سلام ص٥.

(٤) ابن سلام ص٦.

(٥) أنظر في مناقشة المستشرقين لقضية الانتحال، تاريخ الأدب العربي لبلاشير ١/ ١٧٦ وما بعدها.

العربي: The origins of Arabic Poetry) ونراه[1] يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثًا عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه، وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته، وقد بينا آنفًا بأدلة لا تُدْفَعُ كيف أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين ولكن مرجليوث يذهب هذا المذهب، ليقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليؤكد أنه نُظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم!. ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حماد وجَنّاد وخلف الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة في بعض، ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان مستمرًّا. ويقول إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله. وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي من الشعر الجاهلي ما ينقض زعمه نقضًا، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحتة فنسلم بأنه موضوع، ووضعه ينحصر فيه، ولا يبطل ما وراءه من أشعار جاهلية. وينتقل مرجليوث من ذلك إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة، وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب، ويقول ولو أن هذا الشعر صحيح لمثّل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب. وأسلفنا في غير هذا الموضع أن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة في الجاهلية وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية. فكان الشعراء ينظمون فيها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب في عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم. وأما أن الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الحميرية فهذا طبيعي لأنها ليست لغته، وقديمًا قال أبو عمرو بن العلاء: ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[2]. وقد أخذت الفصحى كما قدمنا تقتحم الأبواب على هذه اللغة في الجاهلية نفسها، بحيث نستطيع أن نقول إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهود مبكرة. وآخر أدلة مرجليوث على مزاعمه أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة

---

(١) لخص ناصر الدين الأسد هذه المقالة في كتابه مصادر الشعر الجاهلي تلخيصًا دقيقًا ص٣٥٣ وما بعدها.

(٢) ابن سلام ص١١.

اليمنية لا تدل على وجود أى نشاط شعري فيها، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك. ودحض بروينلش هذا الدليل لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو[1].

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب في دعواه، ولذلك هبَّ كثير من المستشرقين يردون عليه، مثل بروينلش ولايل، واحتج عليه الأخير في مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر- على فرض التسليم بذلك- كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها. ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه، إذ لا يمكن أن يحاكوا شيئًا لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة، وإذن فلابد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه، وحقًا دخله انتحالُ أمثالِ حماد وخلف، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة. ونراه يعود إلى هذا الموضوع في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص، فيؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دُوِّن نهائيًّا في العصر العباسي، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع إلى المعلقات مثلاً يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها والتي تثبت أنها لصاحبها، وأعاد ما قاله في المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول الهجري تلزم بوجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في نفس التقاليد، وأيضًا فإن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدمَ في عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على أنه صحيح في جوهره.

ونضيف إلى ذلك أن في الشعر الجاهلي صورًا من الأساليب والتراكيب الملتوية التي تخرج على الصورة النحوية الطبيعية، مما يدل على قدمها وأنها ليست من صنع العباسيين وأيضًا فإن فيه صورة لتهتك خلقي لا يمكن أن تقوم إلا في نفس وثني، على نحو ما يلقانا في معلقة امرئ القيس وحديثه عن المرضع وبسطه لجوانب متعته بالمرأة.

---

(١) بلاشير ص١٨٠.

ولا يزال المستشرقون إلى اليوم يختلفون في قبول هذا الشعر بحذر والشك فيه شكًّا معتدلاً أو متطرفًا، وممن أدلى بدلوه منهم في هذا الموضوع بلا شير في الجزء الأول من كتابه: تاريخ الأدب العربي، إذ تحدث طويلاً مبينًا بل مجسمًا الشبهات، وبينما يحاول الاعتدال أحيانًا إذا به يهجم هجومًا عنيفًا[1]. ومن ألوان هجومه قوله: "نحن نجد في النصوص المذكورة أن الشعراء أيا كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة منزهة بصورة عامة عن كل أثر لهجي، خاضعة لقواعد تركيبية، هي بصورة مجملة قواعد نحاة البصرة، ولا شك في أن القصائد الجاهلية جردت بتأثير الرواة الكبار عن كثير من الظواهر اللهجية، كما أن التثبيت الكتابي بدوره أتم توحيد اللغة وحتى الأسلوب[2]" ويقول: "كل شيء يدعونا إلى الاعتقاد بأن كبار الرواة ومعهم علماء العراق قد أجروا في الشعر القديم إصلاحات ذات صبغة جمالية[3]" ثم يقول: "والمدهش هو تعدد الروايات واستاعها داخل كل بيت، ولا ريب في أنها ناشئة عن ضعف الذاكرة في أثناء الرواية الشفوية وأن عددًا قليلاً منها ناشئ عن عدم اكتمال طريقة الكتابة أو عن استبدالات في المترادفات. وما من شيء يجيز لنا التأكيد بأن هذه الفروق الجزئية ليست قديمة ولا تصعد إلى ظهور الأثر نفسه[4]" وينتهي من ذلك إلى أن "دراسة النصوص الشعرية (يقصد الصحيحة) تقودنا إلى وضع مبدأ يقضي بعدم امتلاكنا أي أثر شفوي في شكله الأصيل.. ونحن نعلم لكي تتم المأساة أن المقدات قد امتزجت بالأصول القديمة التي يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن في كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات[5]".

وواضح أن بلاشير يزعم أن الأصول الصحيحة للشعر الجاهلي اختلطت بالنماذج والقصائد الموضوعة اختلاطًا يتعذر معه أن تميز، وهو زعم مبالغ فيه، لأن هذه الأصول كما قدمنا وصلتنا عن رواة ثقات، وأجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها، بحيث لا يرقى إليها الشك.

---

(١) بلاشير ص ١٨٣ وما بعدها.

(٢) بلاشير ص١٨٨.

(٣) بلاشير ص١٨٩.

(٤) بلاشير ص١٨٩.

(٥) بلاشير ص١٩٢.

وهو يزعم أيضًا أن الرواة ونحاة البصرة عدلوا في هذه الأصول بما يتمشى مع القواعد النحوية البصرية من جهة والقواعد الجمالية الأسلوبية من جهة ثانية، ويتخذ دليله على ذلك خو القصائد الجاهلية من ظواهر اللهجات القبلية، وقدَّمنا أن هذه الظواهر كانت فعلاً تكاد تكون منعدمة في الجاهلية نفسها لأن الشعراء في القبائل المختلفة اصطلحوا على أن ينظموا شعرهم بلهجة قريش، واتخذوها لغة لشعرهم، ومن أجل ذلك لم يسقط من لهجتهم في أشعارهم إلا أشياء قليلة جدًا، سجلها هؤلاء النحاة البصريون، وإلا ففيم هذه الشواذ النحوية التي تمتلئ بها كتبهم. ولم يكن رواة البصرة ونحاتها وحدهم الذين يروون هذا الشعر، بل كان يرويه معهم رواة الكوفة ونحاتها، وكانوا مولعين بإثبات الشواذ واعتبارها أصولاً يُقاس عليها. أما أن هؤلاء الرواة جميعًا أدخلوا في الشعر الجاهلي إصلاحات ذات صبغة جمالية، تقوم على متانة اللفظ وجزالته، فهي دعوى تستلزم ضربًا من الدور، إذ كانوا يرجعون في هذه الإصلاحات إلى المقاييس الجمالية المبثوثة في هذا الشعر الجاهلي والتي تقوم على الرصانة والجزالة، ثم يصلحونه على أساسها، وبذلك يجعلهم بلاشير يدورون، وهو دور باطل، تنقضه طبيعة الأشياء. والحق أن ثقاتهم نقلوا إلينا هذا الشعر بكل صفاته الجمالية وما داخله من عيوب تركيبية أو شواذ نحوية أو لغوية. على أننا نسلم بما يقوله بلاشير من أن القصائد أصابها بعض التغيير في أثناء سفرها الطويل من الجاهلية إلى عصر التدوين، فقد يستبدل الراوي بكلمة أخرى ترادفها، وقد يغيب عن ذاكرته بعض الأبيات، وقد يخالف في ترتيب أبيات القصيدة فيقدم فيها أو يؤخر. غير أن ذلك لا يخل بصحة ما حمله ورواه العلماء الثقات الذين نصوا على المنتحل المصنوع على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام.

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين وجدنا مصطفي صادق الرافعي يعرض هذه القضية قضية الانتحال في الشعر الجاهلي عرضًا مفصلاً في كتابه "تاريخ آداب العرب" الذي نشره في سنة ١٩١١ ولكنه لا يتجاوز في عرضه- غالبًا- سَرْدَ ما لاحظه القدماء[1]، ونحن نحمد له استقصاءه لملاحظاتهم كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية

(١) أنظر الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص٢٧٧ وما بعدها.

والكلامية، فقد لاحظ ما دخل هذا الشعرَ من بعض الوضع، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفتهم التنبيه عليه.

وخلفَ مصطفى الرافعي طه حسين فدرس القضية دراسة مستفيضة في كتابه "الشعر الجاهلي" الذي أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه. ولم يلبث أن ألف مصنفه "في الأدب الجاهلي" الذي نشره في سنة ١٩٢٧ وفيه بسط القول في القضية بسطًا أكثر سعة وتفصيلاً، إذ زودها ببراهين جديدة، وقد خصص لها في مصنفه أربعة كتب، هي الكتاب الثاني والثالث والرابع والخامس، ونراه يعني في الكتاب الثاني ببيان الأسباب التي تحمل على الشك في الشعر الجاهلي، ويقدم بين يديها نتيجة بحثه فيقول: "إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين، وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدًّا، لا يمثل شيئًا ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي[1]".

وواضح أنه يُبقي في الشعر الجاهلي على بقية صحيحة، وإن كانت في رأيه قليلة، ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر. وقد مضي يبسط السباب التي تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامه، وردَّها إلى أنه لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية. أما من حيث حياتهم فيقول إنه عرضها على القرآن الكريم، فوجده ثمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلاً قويًا، فهو يجادل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية، ويُطْلعنا في تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم، بينما نجد الشعراء- كما يقول- بريئاً أو كالبرئ من الشعور الديني القوي والعاطفة المتسلطة على النفس. وقياس الشعر الجاهلي في هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض، لأن القرآن كتاب ديني يريد أن يجمع العرب على الإسلام، فطبيعي أن يعرض لدياناتهم ويناقشها، ويبين ما فيها من ضلال، بخلاف الشعر، فإن

---

(١) في الأدب الجاهلي (الطبعة الأولى) ص٦٤.

شاعرًا لم يَدْعُ لدين جديد، ومع ذلك فإن في كتاب الأصنام لابن الكلبي ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويرًا دقيقًا.

وينتقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة في الشعر المنسوب إليهم، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة، وكانوا في جمهورهم بدْوًا لم يتحولوا إلى طور فكري منظم، وقد عرضنا في غير هذا الموضع لذلك الطور وما يمثله من أشعارهم. ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة في شعرهم. ويخرج من ذلك إلى أن حياتهم السياسية لا تتضح في أشعارهم، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، مما يوضحه القرآن الكريم في سورة الروم، إذ يعرض علينا العرب شيعتين: شيعة تنتصر للروم وشيعة تنتصر للفرس.وهذا في الواقع لا يصدق على العرب جميعًا، إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التي كانت تنزل في بلاد الدولتين. ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع الروم والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجمونهم. ولما نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هددهم شعراء هذه القبيلة وتوعدهم طويلاً على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلاً.

ويتحدث عن حياتهم الاقتصادية وأننا لا نظفر بشيء ذي غناء في شعرهم يمثل لنا هذه الحياة، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين: طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة وطائفة الفقراء المعدمين، وليس في الشعر ما يصور ذلك كما يقول، إنما فيه أن العرب جميعًا أجواد كرام، على حين يُلح القرآن الكريم في ذم البخل والبخلاء. وهذا القياس أيضًا لا يستقيم، لسبب بسيط، وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء[1]، وأيضًا فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا في مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم فإنهم أكثروا في هجائهم من ذكر البخل وشح النفس. ولابد أن نلاحظ أن كثيرًا من القرآن نزل في قريش التاجرة التي بلغ كثير منها مبلغًا عظيمًا في الثراء والتي كان يشيع فيها الربا أضعافًا مضاعفة.

ووقف طه حسين طويلاً إزاء لغة الشعر الجاهلي ولاحظ أنه لا يصور اللغتين الشائعتين في الجزيرة: لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية، بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعارًا بلغة

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ليوسف خليف (طبع دار المعارف) ص١٣٢ وما بعدها وص٢٢٧ وما بعدها.

الشماليين. وحقًّا أن ما يضاف إلى من كانوا في أقصى الجنوب وداخل اليمن منتحل، أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين فقد تعربوا في الجاهلية مثل مذحج وبلحارث بن كعب. على أنه يطرد القياس فيتشكك في شعراء القبائل اليمنية التي هاجرت من مواطنها الأصلية في الجنوب إلى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس. ومما لا شك فيه أن هذه القبائل هاجرت إلى الشمال قبل العصر الجاهلي وتعرَّبت، فهي ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية، وإنما هي شمالية. وقد وقف عند لهجات الشماليين في الجاهلية، تلك التي تمثِّلها قراءات القرآن الكريم، ولاحظ أن الشعر الجاهلي لا يمثلها، واتخذ من ذلك مطعنًا في صحته، ومر بنا في غير هذا الموضع أن لهجة قريش عمَّت في الجزيرة منذ أوائل القرن السادس الميلادي واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم، ينظمون فيها أشعارهم مرتفعين غالبًا عن لهجات قبائلهم المحلية، فلا محل للتساؤل عن هذه اللهجات في شعر الجاهليين، ولا موضع لاتخاذ ذلك دليلاً على أنه منتحل موضوع. ونراه يتشكك في شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية، غير أن هذه الشواهد أبيات فردية، واتهامها ينبغي أن ينحصر فيها وأن لا يتعداها إلى الشعر الجاهلي عامة.

ويخرج طه حسين في مصنفه من هذا الكتاب الثاني إلى الكتاب الثالث، فيتحدث عن أسباب نَحْل الشعر ويبسطها بسطًا معتمدًا على ملاحظات القدماء، ونراه يردها إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة، أما السياسية وأراد بها العصبية القبلية فرآها تلعب دورًا واضحًا في شعر قريش والأنصار، إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعارًا كثيرة، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذي يهْجَي به الأنصار. وواضح أن هذا لم يكن غائبًا عن ابن سلام، فقد نص عليه وحذر منه كما أسلفنا، كما حذر من أشعار وضعتها قريش على لسان حسان. على أن الأشعار جميعها التي وقف طه حسين عندها ليست جاهلية، وإنما هي إسلامية.

وينتقل إلى الدين فيبين دوره في هذا النحل متشككًا في الأشعار التي يقال إنها نُظمت في الجاهيلة إرهاصًا ببعثة الرسول، مما رواه ابن إسحق واحتفظ به ابن هشام في سيرته، ومثله ما يضاف إلى الجن والأمم القديمة البائدة. ومر بنا رفض ابن سلام لهذه الأشعار وما يماثلها. وتشكك فيما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار، وكذلك ما أضيف إلى عدى بن زيد

العبادي، ولم يكن القدماء في غفلة عن ذلك[1]. ونراه يتحدث عن القصص والقصاص وأثرهم في وضع الشعر، ومر بنا تنبيه ابن سلام على ذلك عند ابن إسحق وأضرابه. ويعرض للشعوبية وما يمكن أن تكون قد نحلت الجاهليين من أشعار، لتثبت على لسانهم مثالبهم التي تدعيها، كما تثبت ثناءهم على الأعاجم. وقد تشكك في هذا الشعر الكثير الذي يضيفه الجاحظ إلى الجاهليين في مصنفه الحيوان، ليدل على اتساع معرفتهم في هذا العلم: علم الحيوان، عصبية لهم، والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ، فهو نفسه ينفي عنهم العلم الدقيق بالحيوان، إذ يقول إن معارفهم فيه معارف أولية، وإنه إنما دار في أشعارهم لأنه كان مبثوثًا تحت أعينهم وأبصارهم في ديارهم[2]. ويختم هذا الكتاب بالوقوف عند الوضاعين من الرواة أمثال حماد وخلف، ومرَّ بنا كيف أن القدماء كانوا لهم بالمرصاد. ومعنى ذلك كله أنه في هذا الكتاب إنما يردد ما نص عليه العلماء السابقون من قضايا، يريد أن يتسع بها لنقض الشعر الجاهلي جميعه، وهي إنما تنقض جوانب منه، وينبغي أن نقف عندها، وأن لا نذهب مذهب التعميم، فإن القدماء إنما ذكروا هذا كله ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلي من سياج قوي، حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول.

ويمضي طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الرابع، وهو دراسة تطبيقية لبيان الانتحال في شعر طائفة من شعراء اليمن وربيعة ويبدأ في دراسته بامرئ القيس ويتشكك في شعره، لأنه يمني وشعره قرشي اللغة، ثم هو شعر مضطرب ركيك. ومرَّ بنا أنه كان يمني الجنس، ولكنه كان قرشي اللغة، أما أن شعره ركيك والوضع فيه كثير فقد كان يغنيه عن هذا الظن ما يُرْوي عن الأصمعي من أنه قال: "كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نُتَفًا سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء"[3]. ونراه ينتقل إلى علقمة الفحل فيشك في شعره، وقد كان ابن سلام لا يثبت له سوى ثلاث قصائد[4]. وشك في شعر عبيد بن الأبرص، وأسلفنا أن ابن سلام لم

---

(١) أنظر ابن سلام ص١١٧.

(٢) الحيوان ٦/ ٢٩ وما بعدها.

(٣) مراتب النحويين ص٧٢.

(٤) ابن سلام ١١٦.

يكن يعرف له سوى معلقته (أقفر من أهله ملحوب) وكان يقول إن شعره مضطرب ذاهب. ومضى طه حسين على هذا النحو يشك في شعر عمرو ابن قميئة ومهلهل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والأعشى معتمدًا على الأحكام الذاتية، ولو أنه استق٤صى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيرًا في تحقيق أشعارهم جميعًا.

وننتقل مع طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الخامس، وهو خاص بشعراء مضر، فنراه لا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضريون وشعر مضري، غير أنه لا يلبث أن يستدرك قائلاً: "لكننا لا نشك أيضًا في أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته، ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جدًا لا يكاد يمثل شيئًا، وهذا المقدار القليل الذي بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف والنحل، حتى أصبح من العسير جدًّا إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته[1]". ويضيف إلى ذلك أن من الخطأ أن نكتفي في الحكم على الشعر المضري بالسند ومن يحمله من الرواة، أو بالغرابة والسهولة، ذاهبًا إلى أن الباحث في هذا الشعر ينبغي أن يحكم فيه مقياسًا مركبًا من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء بحيث يكونون مدرسة كمدرسة أوس بن حجر التي تتألف منه ومن زهير وابنه كعب والحطيئة، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركية ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانتحال. وكأنه بذلك يهدم شكوكه الواسعة في الشعر الجاهلي، فقد رجع أخيرًا يسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه. على أننا لا نسلم له بطرد هذا المقياس في تلك المدرسة نفسها، فقد لاحظ القدماء أن شعر أوس بن حجر اختلط بشعر ابنه شريح[2]، واختلف الرواة في بعض ما نُسب إليه من شعر هل هو له أو لعَبيد ابن الأبرص الأسدي[3]، وسنرى في درسنا لزهير أن من الخطأ أن نقبل رواية الكوفيين لديوانه، فقد حَملت زيادات كثيرة، شك القدماء في أطراف منها، ونفس الرواية البصرية سنرفض قطعًا وأشعارًا منها، على الرغم من أنها جاءتنا عن الأصمعي بل سنرى الأسمعي نفسه يشك في ثلاث قصائد مثبتة في روايته.

---

(١) في الأدب الجاهلي ص٢٧٠.

(٢) الحيوان ٦/ ٢٧٩.

(٣) ابن سلام ص٧٦-٧٧.

والحق أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير، غير أن ذلك لم يكن غائبًا عن القدماء، فقد عرضوه على نقد شديد، تناولوا به رواته من جهة وصيغه وألفاظه من جهة ثانية، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق. ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحري والتثبت، فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه، إنما نشك حقًا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وأبي زيد فحرى أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته. ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن، كأن يُرْوَي لشاعر شعرٌ لا يتصل بظروفه التاريخية، أو تجرى فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته، أو يُضاف إليه شعر إسلامي النزعة، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسًا.

(٥)

أهم مصادر الشعر الجاهلي

رأينا علماء البصرة والكوفة ورواتهما يجمعون مادة الشعر الجاهلي، وقد توزعتها منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل غير كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة. وسنحاول وصف طائفة منها وبيان مقدار الثقة بها. ونبدأ من المنتخبات العامة بالمعلقات، وقد مر بنا أنها لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين، وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذًا من كلمة العلق بمعنى النفيس، ويقال إن أول من رواها مجموعة في ديوان خاص بها حماد الرواية[1]، وهي عنده سبع: لامرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة. ونراها عند صاحب الجمهرة سبعًا أيضًا، غير أنه اسقط اثنين من رواية حماد هما الحارث ابن حلزة وعنترة وأثبت مكانهما الأعشى والنابغة، وربما أضاف حماد الحارث في مقابلة عمرو بن كلثوم التغلبي لأن ولاءه كان في بكر. على أننا لا نمضي في عصر التبريزي حتى نجده يجعلها في شرحه لها عشرًا جامعًا بين الروايتين ومضيفًا قصيدة عبيد بن الأبرص: (أقفر من أهله ملحوب).

وقد عُنى الشرّاح بهذه المجموعة، فشرحوها مرارًا، وطبع من شروحهم شرح الزوزني المتوفى سنة ٤٨٦هـ. وقد كتبه على رواية حماد، ثم شرح التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢. وأكبر الظن أن حمادًا لم يأخذ حريته كاملة في قصائد مجموعته، فقد كانت على ما يظهر معروفة بين العرب، على أنه ينبغي مقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة.

والمجموعة الثانية في المنتخبات هي المفضليات، نسبة إلى جامعها المفضَّل الضبي راوي الكوفة الثقة، وقد نشرها ليال بشرح ابن الأنباري، وهي مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وُجدت في بعض النسخ، وفي مقدمة الشرح سند كامل لها يرفعه ابن الأنباري إلى ابن الأعرابي تلميذ المفضل ورَبيبه، ويقول ابن النديم "هي مائة وثمانية وعشرون قصيدة، وقد تزيد

---

(١) أنظر ترجمة حماد في معجب الأدباء ١٠/ ٢٦٦.

وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر، بحسب الرواية عن المفضل، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي[1]" ومعنى ذلك أن في أيدينا أوثق نسخة للمفضليات. وتعَّلق عبد السلام هرون وأحمد شاكر ناشراها في دار المعارف بنص عن الأخفش يزعم أنها كانت ثمانين ألقاها المفضل على المهدي، وزاد فيها الأصمعي أربعين، ثم زاد البقية بعض تلاميذه[2]، وربما جاء الأخفش اللبس[3]. من أن الأصمعيات تلتقي معها في تسع عشرة قصيدة، وأيضًا فقد وجد الرواة يقولون إن أبا جعفر المنصور حين عهد إلى المفضل بتثقيف ابنه المهدي بالشعر القديم اختار له ثمانين قصيدة، فلما وجدها قد زادت عن الثمانين ووجدها تلتقي مع الأصمعيات في بعض القصائد ظن أن الأصمعي وتلاميذه هم الذين أضافوا فيها هذه الزيادات، ولو أنه أطلع على رواية ابن الأعرابي خصم الأصمعي لزايله هذا الوهم، وكأن المفضل أختار أولاً ثمانين القاها على المهدي، ثم زادها إلى مائة وثمانٍ وعشرين كما جاءت في رواية تلميذه ابن الأعرابي.

وهي موزعة على سبعة وستين شاعرًا منهم سبعة وأربعون جاهليًّا وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر والحارث بن حلِّزة وعلقمة بن عبَدة والشَّنْفري وبشر بن أبي خازم وتأبط شرًّا وعوف بن عطية وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري والمسيَّب ونبيهم امرأة من بني حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عَسلة الشيباني وتتضح مسيحيته في اسمه، ثم جابر بن حنى التغلبي، ونراه يقول في مفضليته:

وقد زعمتْ بَهْـَراءُ أَن رماحنـا ... رماحُ نصاري لا تخـض إلى الـدَّمِ

ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلي سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليده وصفًا دقيقًا، فقد مثَّلت جوانب الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة، وانطبعت في كثير منها البيئة الجغرافية. وقد جاء بها غير قليل

---

(١) الفهرست ص١٠٢،

(٢) ذيل الأمالي ص١٣١.

(٣) ذهبنا إلى أنه لبس، وربما كان بعامل التنافس بين البصريين والكوفيين، فالأخفش البصري يريد أن يقول إن المفضليات من صنع البصريين والكوفيين جميعًا لما كان لها من ضهرة في عصره فاقت شهرة الأصمعيات.

من الكلمات المندثرة التي لم ترد في المعاجم اللغوية[1] على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة، مما يرفع الثقة بها ويؤكدها.

والمجموعة الثالثة من كتب المنتخبات العامة الأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راويها، وقد نشرها آلورد (Ahlwardt) عن نسخة سقيمة في برلين سنة ١٩٠٢ وأعاد نشرها عبد السلام هرون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطي نقلها عن أصل قديم وهي نشرة علمية جيدة، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين، وهي موزعة على ٧١ شاعرًا منهم نحو ٤٠ جاهليًا على رأسهم امرؤ القيس والحارث ابن عباد ودريد بن الصمة وأبو دؤاد افيادي وذو افصبع العدواني وسلامة بن جندل وطرفة وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم، وبينهم يهوديان هما شعية بن الغريض والسموأل. وهذه المجموعة كسابقتها في الثقة بها وعلو درجاتها، وقد جاء فيها أيضًا كثير من الكلمات المهجورة التي لم تثبتها المعاجم[2]، غير أنها لم تلعب الدور الذي لعبته المفضليات فلم يتعلق بها الشراح، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات، وأيضًا فإن الأصمعي لم يرو كثيرًا من القصائد كاملة، بل اكتفي بمختارات منها.

والمجموعة الرابعة جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين، غير أنه يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة أن بينه وبين رواة القرن الثاني جيلين أو ثلاثة، فالوسائط بينه وبينهم في السند غير بعيدة، ولذلك نظن أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع، وقد ذكره ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة في كتابه العمدة [3] كما ذكره السيوطي في المزهر [4] والبغدادي في الخزانة[5]. والجمهرة تضم تسعًا وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد، والقسم الأول خاص بالمعلقات، وقد أخذ فيها برواية أنها سبع، وأسقط منها معلقتي الحارث وعنترة ووضع مكانهما معلقتي

---

(١) أنظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات (طبع دار المعارف).

(٢) أنظر الفهرس الثالث الملحق بالأصمعيات.

(٣) العمدة ١/ ٦٠.

(٤) المزهر ٢/ ٤٨٠.

(٥) الخزانة ١/ ١٠، ٦١، ٢/ ٥٥.

الأعشى والنابغة، ويلي هذا القسم المجمهرات وهي لعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وبشر بن أبي خازم وأمية بن أبي الصلت وخداش ابن زهير والنمر بن تولب وعنترة وألحقت قصيدته في النسخة المطبوعة بالمعلقات خطأ. ويلي ذلك المنتقيات أي المختارات، ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين، وربما قُصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب، ثم عيون المراثي، ثم المشوبات، وهي لمخضرمين، شابهم الكفر والإسلام، ثم الملحمات وجميعها لإسلاميين. وهي مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية، فلابد في الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة. وطُبعت الجمهرة مرارًا في بيروت والقاهرة.

ومثل هذه المجموعة في ضعف سندها مختارات ابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة، وهي مختارات من شعر جاهلي وإسلامي، موزعة على ثلاثة أقسام وأهم مَنْ في القسم الأول الشنفري وطرفة ولقيط الإيادي والمتلمِّس، أما القسم الثاني فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبي خازم وعَبيد بن الأبرص، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة. وطبعت هذه المجموعة بالقاهرة.

وتدخل في هذه المختارات دواوين الحماسة، وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية، إذ لا يعرِّفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها ديوان الحماسة لأبي تمام المتوفى حوالي سنة ٢٣١ للهجرة وقد شُرح مرارًا، ومن شروحه المطبوعة شرح المرزوقي وشرح التبريزي وهو يفيض بالإشارات التاريخية. ونصَّ المرزوقي على أن أبا تمام أصلح في الشعر الذي رواه، يقول: "إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه، فيَجْبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده، وهذا يُبين لمن رجع إلى دواوينهم، فقابل ما في اختياره بها[1]". وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة وبه سماها، وهي مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين، وقلما روي فيها قصائد كاملة. وتلي هذه الحماسة في الأهمية حماسة البحتري المتوفى سنة ٢٨٤هـ وهي مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين بابًا، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية، ولم يُعن القدماء بشرحها. ولابن الشجري صاحب المختارات حماسة طُبعت في حيدر آباد، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي. وطبعت

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ١٤.

أخيرًا حماسة الخالديين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدي المتوفى سنة ٣٥٠ ومحمد المتوفى سنة ٣٨٠ ولا تزال الماسة البصرية لعلى بن أبي الفرج البصري المتوفى في القرن السابع غير مطبوع، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منها.

وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة لقينا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين: امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها ألوارد، إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعي التي احتفظ بها شرح السنتمري، بل أضاف إليها زيادات هي في الأكثر منحولات، ولا نزال في حاجة إلى نشر شرح الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ وقد استخرج منه مصطفي السقا شرحه على تلك الدواوين والتزم روايته في المجموعة التي سماها باسم مختار الشعر الجاهلي. وطُبع ديوان امرئ القيس طبعات مختلفة لعل أهمها الطبعة الأخيرة بدار المعارف، وقد جمع فيها أبو الفضل إبراهيم رواياته جميعها وقارن بينها مقارنات دقيقة. ونشرت دار الكتب المصرية ديوان زهير بشرح ثعلب، غير أن من حققوه لم يقابلوا بين هذه الرواية الكوفية ورواية الأصمعي البصرية التي يحتفظ بها الشنتمري في شرحه. وطُبعت دواوين أخرى مثل ديوان النابغة وطرفة ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفري وأوس بن حجر، إلا أن أكثر هذه الدواوين لا يزال في حاجة إلى نشرة علمية جيدة. وقد نشر لايل ديواني عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل، وهناك دواوين مخطوطة لما تنشر.

أما دواوين القبائل التي جمع منها الشيباني نيفًا وثمانين، وعُنى السكري بكثير منها، ففقدت في الطريق[1]، ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هذيل نشرت في خمس مجموعات، أربع منها في أوربا وهي من صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، طُبعت أولاها في لندن سنة ١٨٥٤ بتحقيق كوزجارتن وطبعت الثانية في برلين سنة ١٨٨٧ بتحقيق فلها وزن، وطُبعت الثالثة وهي خاصة بديوان أبي ذؤيب في هانوفر سنة ١٩٢٦ بتحقيق يوسف هل، وفي سنة ١٩٣٣ نشر القطعة الرابعة في ليبزج، وهي تتداخل مع القطعة الخامسة التي نشرتها دار الكتب المصرية، ويظهر أن هذه القطعة الأخيرة اختلطت فيها نسخة السكري بنسخة أخرى مختصرة ولذلك كان يقل فيها الشرح

(١) أنظر في تحقيق هذه الدواوين مصادر الشعر الجاهلي ص٥٤٣ وما بعدها.

وإسناد الرواية. ويعني عبد الستار فراج- بمراجعة محمود شاكر- بتحقيق أشعار الهذليين من صنعة السكري وقد نشرت منه مكتبة دار العروبة جزءين. ومن ألحق أن القطع التي وصلتنا من شرح السكري غاية في النفاسة لا لأنه يضمنها أخبارًا وشروحًا فحسب، بل أيضًا لأنه يقفنا وقوفًا دقيقًا على مصادره، إذ يذكر دائمًا الإسناد في القصيدة وألفاظها وأبياتها مثبتًا ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعي والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني ومن جاء بعدهم من البغداديين مثل عبد الله بن إبراهيم الجمحي، ومن بين من ينقل عنهم أبو عبيدة. ومنه نعرف أن الأصمعي كان ينقل عن مصدر من نفس القبيلة هو عمارة بن أبي طرفة الهذلي. وبذلك كانت هذه القطع التي رواها السكري من ديوان هذيل لا تقل ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات.

ومن الكتب الجيدة التي تشتمل على شعر جاهلي كثير شرح النقائض لأبي عبيدة، فقد أنشد فيه كثيرًا من الشعر الذي قيل في أيام العرب، وحذا حذوه مَنْ كتبوا في أيام العرب مثل ابن الأثير في كامله وابن عبد ربه في عقده. ومن الكتب الجيدة أيضًا طبقات الشعراء لابن سلام، ومر بنا أنه أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلي صحيحه ومصنوعه. أما كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة فربما كان خير ما فيه مقدمته التي يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة، أما بعد ذلك فالكتاب فقير في تراجمه وما يُطوى فيها من أخبار وأشعار غير مسندة إلى رواتها. وهناك كتبُ أدبٍ ألفت في البصرة مثل البيان والتبيين والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد، ومن الخير أن نرد ما بها من شعر إلى روايات بصرية صحيحة، حتى نكون أكثر طمأنينة، ويجرى مجراها ما في أمالي اليزيدي ومجالس ثعلب من أشعار. وينبغي أن نتلقي كتب الأدب البغدادية مثل عيون الأخبار لابن قتيبة بحذر، ومَثلها أمالي أبي على القالي ففيها انتحال كثير. ومن المختصرات التي تفيد في المراجعة كتاب المؤتلف والمختلف للآمدي ومعجم الشعراء للرزباني وكتابه الموشِّح نفيس في التعرف على كثير مما وضع على الشعراء الجاهليين. وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة والصناعتين لأبي هلال العسكري والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني والعمدة لابن رشيق، ومثلها مثل الشواهد المبثوثة في كتب اللغة والنحو ينبغي التوثق

منها بالرجوع إلى المصادر الأصلية الوثيقة. أما ما جاء في كتب السير والأخبار والتاريخ كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومغازي الواقدي فينبغي أن نرفضه إلا أن تدعمه روايات صحيحة.

وإذا كنا فقدنا كثيرًا من الدواوين المفردة ودواوين القبائل وما كان بها من أخبار وأشعار فإن كثيرًا من ذلك احتفظ به أبو الفرج الصبهاني في كتابه الأغاني الذي ترجم فيه للشعراء من القرن السادس إلى القرن التاسع للميلاد ترجمات غنية، سجل فيها كثيرًا من المادة التي فُقدت، وكان له ذوق عالمٍ ناقد بصير، فساق من الكتب التي سبقته أطرفَ ما فيها من أخبار وأشعار، ولم يسقها مفردة، بل ساقها بأسانيدها التي ترجع بها إلى مصادرها ورواتها الأوائل مثل الأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وأبي عمرو والشيباني والهيثم بن عدى وخالد بن كلثوم وابن الكلبي وأضرابهم، ومَنْ خلفوهم من جلة الرواة والمصنفين، وإذا تعددت الروايات في الخبر ذكرها جميعًا، وكثيرًا ما يقف ليفحص ما ينقله، فيرفض رواية لأن راويها ابن الكلبي أو ابن خرداذبة أو غيرهما من المتهمين. وقد يشك في مقطوعة أو قصيدة تنسب لشاعر من الشعراء، فيرجع إلى ديوانه في رواياته المختلفة، وينص على أنه وجدها أو لم يجدها. وقد يعرض الخبر على التاريخ ليتوثق منه. وفي تضاعيف ذلك يسوق آراء الرواة والنقاد في الشعراء وشعرهم. والحق أنه أكبر مصدر لتاريخ الشعر الجاهلي وأصحابه، فإذا أصفنا له الأصمعيات والمفضليات وديوان هذيل وما صنع من الدواوين المفردة كنا أمام مادة خصبة للبحث والدراسة في الجاهليين وأشعارهم وأخبارهم.

ومن الكتب المتأخرة التي احتفظت ببعض ما فُقد من الروايات والمصنفات القديمة خزانة الأدب للبغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ للهجرة، وهو شرح على شواهد الرضى شارح كتاب الكافية لابن الحاجب، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة. ومثله في هذا الاتجاه شرح السيوطي على شواهد المغني لابن هشام.